إلى طبيب ..

قصة جديدة بقلم سميرة عزام

— لا تنهضي سعاد. مكانك ظلي، فسآتيك بالافطار الى الفراش.

وكانت سعاد تنحي عنها الغطاء حين امتدت يد عمتها تمنعها من ذلك. « ظلي، ظلي. سمعتك بالأمس تسعلين واخشى عليك من زكام » .. ولم يكن بسعاد سعال ذو خطر، يستدعي ان ترفق بها عمتاها الى حد ان تحملا لها الافطار الى فراشها.. ولكنها ادركت ما وراء الحكاية، فعادت وتمددت في فراشها في تراخ، وابتسمت ابتسامة خبيثة، وراحت تفكر في هذا الانقلاب العاطفي الذي لم تعرفه الى ما قبل مدة وجيزة .. فقبل ذلك كان عليها ان تقوم مع الفجر وتسعى على قدميها الى المطبخ، تجهز القهوة والافطار لعمتيها ولها .. واذا حدث ونامت دقائق اكثر من المعتاد، فهناك صوت العمة الكبيرة يلعلع :

— الم تستيقظ بنت الباشا ؟ ما شاء الله ! تراها ستظل نائمة الى الظهيرة ؟ ومن يكنس الشرفة ويسقي الزرع ؟ انا ؟

فتنهض سعاد قبل ان تقفز شتيمة الى لسان عمتها .. وتسعى خفيفة الى شؤون البيت.. الا شكراً لفهمي — ابن الجيران — وشكراً اكثر لخادمتهم التي قدمت بالامس تقضي شأناً لسيدتها فلقيت من العمتين حفاوة — قلما تكون في طبعها — وفي نوبة كرم اتيح للخادمة ان تذوق قطعة من النارنج المسكّر، وان تشرب فنجان قهوة ينطلق بعده لسانها يكشف من امور تخدومييها اشياء .. (ففهمي) ابن الاسرة الكبير الذي نال (الشهادة) هذا العام ولدٌ كله ذوق وانسانية، وليلى — اخته — فتاة مدللة لا هم لها الا ان تقرأ قصصاً فرنسية، وتلعب على البيان وتختلف مع صواحبها إلى السينما .. اما الام — ام فهمي — فسيدة تعيش على مَهَل.. خادمة وسائق وطباخ.. مرفهة تحمل لها افطارها الى الفراش ..

وتذهب الخادمة وكلامها يطن في اذن العمتين .. وتنظر كل منهما للاخرى نظرة لا يفهمها غيرهما ..

وفي الغد .. تُحمل طعام سعاد .. الى فراشها ! .. بقي ان نعرف سر هذا التدليل المفاجيء .. الذي لم تعتده اليتيمة التي رُبيت في كنف عمتين كهلتين .. حسناً، لسبب او اكثر اعتقدت العمتان ان فهمي الابن الاكبر لعائلة الطبيب الكبير التي قطنت مؤخراً بجوارهم (له خاطر) في سعاد ..

وقفت شفيقة — العمة الكبرى — مرة على الشرفة فرأت ابنة اخيها تبادل شاباً يقف على الشرفة المجاورة الابتسام .. فهمت بان تبادر الفتاة بزعقة تجمد معها البسمة على شفتيها لولا انها تذكرت ان الفتى يقف على شرفة بيت الطبيب الثري الوجيه ذي السيارة التي يقودها سائق.. وساكن الفيلا التي يرمقها المارة بحسد كثير.. فارتسم على فمها شيء يحار بين الابتسام والتكشير .. لتردّد في نفس العمة .. اتجعلها ابتساماً خالصاً ام تستبدل بها تكشيرة تقليدية يفهم منها الاثنان ان العمة لا تشجع الوقاحة.. ولا تحبها..

وضبطتها في موقف ابتسامي، مرة اخرى. وهنا كان لا بد من محضر استجواب مستعجل للفتاة تتناوبه العمتان ..

— كيف عرفت الولد ؟

— انه يراني على الشرفة وقابلني في الدرب مرة او مرتين .

— هل تحادثتما ؟

وسعلت الفتاة لتتهرب من الجواب ولكن (زغرة) من العمة الكبيرة فكت لسانها .

فقالت — نعم

— وماذا قال يا ترى ..

— سألني كيف حال عمتيك !!

وتنظر العمتان الواحدة منهما للاخرى وتقولان في صوت معاً :

— اقال هذا حقا ؟ ابن ناس ..

ابن ناس .. وماذا ايضا ؟

— مرةً رآني في الترام فدفع عني ثمن التذكرة ...

وتقطب شفيقة ما بين حاجبيها وتصطنع الجد وتقول : « طيب قومي الى امرك » .

وتخلو شفيقة الى انيسة، فتخليان التطريز الذي كان في ايديهما لتسأل الصغرى اختها ..

— فكرك ؟!

— نعم فكري ...ولم لا هي وشطارتها .. اهو اكبر من ان يحب سعاد ثم يتزوجها؟ أفي الحي من هي احلى ؟. قد تكون فقيرة بالنسبة له ولكن الفقر ليس عيباً .. فأم فهمي نفسها — كما سمعت — كانت ممرضة في عيادة زوجها، وبنتنا مهذبة لبقة بنت بيت «تربية راهبات...» وبيت (ابي فارس) ما طلعت منه واحدة قال الناس فيها ما يشين. المسألة لا تحتاج لأكثر من بعض المسايرة واللباقة والتدبير

— من الغد نقوم انا وانت بزيارة لأم الولد ..

— ولكن ...

— ولكن ماذا؟؟ تريدين ان تقولي اننا لا نعرفها؟ وماذا؟ نتعرف

عليها. وكيف يتعارف الناس في الطرقات؟ في الاسواق؟ لا عليك.. السعي للحلال ما كان حراماً في شريعة .. هل تريدين ان يقول الناس ان بنات «ابي فارس» يبقين عوانس ما عشن ... او حتى لو تزوجن فعلى كبر وهن عجائز؟.. لا تفتحي فاكِ، أعرف ماستقولين. تعنين أنك بقيت عانساً بارادتك؟ لا ستي لا ... من دق بابك غير اسحق بائع السجق وكان أصمّ واحدى ساقيه في القبر؟ اسكتي، اسكتي. انا ادرى منك بهذه الامور. فما عرفت من دنياك الا القماش والخيوط. من الغد كما قلت نزور أم فهمي ونشجعها وابنتها على زيارتنا.

وسكتت انيسة.. فما فرحت في اعوامها الخمسين برغبة لها تنفذ وشفيقة في الوجود. نشأتا معاً وتعلمتا المهنة وعرفها الناس مطرزتين تشدان القماش على الانوال فيخرج من بين انامليها المدربة مخدات ومفارش تزدان بها بيوت العرائس ..

وكانت شفيقة تقابل الزبائن.. وتعقد الصفقات وتقبض الاجرة ولا تنفقها الا بحساب فعزيز عليها فراق القرش، والقروش — كل القروش — تنفع في الايام السود.. ومستقبل الاختين ليس بياضاً خالصاً بعد ان تخف حدة بصرهما .. وينقطع مصدر رزقهما الوحيد.. ولم تستروح انيسة من سيطرة اختها الا حين تزوجت تلك ولكنه كان زواجاً قصيراً كليالي الصيف.. مات الزوج العجوز ولم ينجب ابناء فعادت شفيقة الى شأنها في البيت والانوال والتحكم في انيسة..

وتمشت مشيئة اكبر الشقيقتين .. فزارتا ام فهمي ولم تصحبا لأمر في نفس الكبرى.. وعادتا بعد ساعة وقد انكمش العالم في عيونهما واختُصرت شؤونه فهو ليس اكثر من عائلة فهمي .. امه، ابيه، اخته، بيتهم المترف، فرشه الوثير، لم تفرغا من التحدث بهذا كله طيلة سهرة امتدت الى مابعد منتصف الليل، واستغرقهما الحديث حتى نسيتا ان النور الكهربائي بحساب ...

وتسمع سعاد وتدرك بغريزة الانثى ان عمتها تنوي امراً وقد اخذت ما كان بينها وبين الفتى من ابتسام بريء وتحيات في الطريق مأخذ جد خالص .. ولكنها اطبقت فمها تنتظر النتيجة .. او اطبقته استكانة لهذا الدلال الذي اختصتها به.. فأعفيت من اكثر الواجبات البيتية .. فمسح البلاط — كما صار معلوماً لدى العمتين مؤخراً — ينال من طراوة يديها، وتقشير البصل ليس بالعمل المستحب لمتأنقة .. وكنس الشرفة — والشرفة المقابلة ببيت الجيران بالذات — لايليق بواحدة تطمع او تطمع عمتاها .. في ارستقراطي كفهمي ..

★

— سعاد لم لا تعزمين على الولد بفنجان قهوة؟

وتستحي الفتاة. كيف تفعل .. بل كيف تخلق المناسبة؟ فلا تجيب ويحمر خداها .. فتقول عمتها بملاطفة:

— هيه لقد خجلت .. لا بأس، سأدعوه انا ..

ووافتها المناسبة. كانت تسير وسعاد في الطريق فمر بهما صدفة وحيّا بصوت خفيض، ولكن شفيقة رأت عين الواجب ألا تمر به دون مجاملة فاستمهلته لتسأله عن امه وابيه وصحة المدموزيل الحبوبة — اخته — وتبسطت أكثر فسألته عما يفعل في العطلة .. وقالت نحن جيرة ويسرنا ان (تخطف رجلك صوبنا) فانت فتى مهذب ابن ناس .. ونحن والماما (صحبه) ..

وشكرها بوقة وما انتهت حتى كانوا قد بلغوا البيت، فألحت عليه بالدخول فدخل بعد ان ألقى نظرة على بيتهم ليرى ان كان هنالك من يرقبه.. وسرعان ما حضرت القهوة والحلوى والسجائر الامريكية التي هرولت انيسة تبتاعها من اقرب حانوت.. ومكث الفتى ساعة ولما قام شيعته العمتان الى نهاية السلم وكررتا عليه ان (يعيدها)

اما سعاد فقد جلست بقلق تفكر فيما عسى ان يقول الفتى في عمتيها. ويقطع عليها تفكيرها صوت عمتها وقد عادت الى القاعة تأخذها بعتاب ناعم.. إذ لم تساير الفتى كاللازم.. وظلت ساكتة بصورة قد يظن معها فهمي ان زيارته غير مرغوبة.. أو انها لاتفهم كيف تحكي كلمتين على بعضهما .. وتتطوع شفيقة باعطائها بعض النصائح ثم تستدير الى انيسة وتهمس: الا ترين.. صهرنا.. فتى لطيفاً؟

وتلعب الصدف دوراً في احلام العمتين إذ تأتي اخت فهمي مرة توصيهما بتطريز ثوب.. فتبشان في وجهها كثيراً وتتطوعان بتعليمها

صدر حديثاً

الوعي الاجتماعي

للدكتور جورج حنا

وهو الجزء الاول من مجموعة «الحارثيات» التي تنتظم مختلف محاضرات الدكتور جورج حنا ومقالاته، والتي سوف تصدر اجزاء متتابعة، شهراً بعد شهر.

الثمن ليرة واحدة — دار العلم للملايين

التطريز ولتقم هي بنقش الثوب بنفسها ..

وترحب ليلى بالعرض فهذه تجربة جديدة تختلف عما ألفت في حياتها الرضية من مشاغل هينة .. وتأخذ بالتردد يومياً عليها وفي يدها قماشها وابرتها، ومن ثم تنشأ بينها وبين سعاد ألفة تشجعها العمتان وتصبح سعاد صديقة لليلى فتدعوها الى حفلة تقيمها في عيد ميلادها .. ولا تذهب سعاد فارغة اليد إذ تحمّلها شفيقة ستارة ً الوانها من الوان الربيع .. وكان أدعى الى فرحة سعاد ان كانت عمتها بعيدة النظر ففتحت كيسها على سعته وابتاعت لها ثوباً وحذاء جديدين. فسعاد يجب ان تبدو انيقة كأحسن المدعوات ناعمة يفتنّ بها من يراها وهذه مناسبة سيحضرها فهمي وسيراها ويتحادثان و .. و. من يدري!

وتمضي سعاد الى الحفلة محرجة بعض الشيء ، فما سبق لها ان عرفت هذا اللون من الفتيات والشبان. وتلحظها ليلى فتخف اليها تلاطفها وما لبثت ان اندمجت في الجو حين دارت انغام الرقص وعلا صخب الشباب وقضى صياحهم على جو التكلف الذي يسود الحفلات في مبتداها حين لا يكون للناس همّ الا ان يزنوا كل وافد بالقيراط وبنظرات تتلون اعجاباً أو سخرية أو رضى ..

وفي تلك الآونة بالذات كانت شفيقة وانيسة تطلان من الشرفة ترقبان المدعوين – نعني المدعوات – وتتساءلان عن الوجوه الغريبة من تكون.. ولا ترتاح شفيقة للعدد الكبير من المدعوات فتقول : صاحبات ليلى.. كثيرات..

وتفهم انيسة ما تعنيه اختها فتقول : اطمئني .. ليس فيهن من هي أحلى من (سعادنا ..)

وتظلان في موضعهما من الشرفة يأكلهما القلق حتى تعود سعاد تقص اخبار الحفلة وترد على اسئلة انهالت عليها كالمطر ..

– هل سلمت على ام فهمي؟ هل رقصت مع فهمي .. ماذا قالت ليلى عن ثوبك؟ على فكره، من تكون الفتاة الشقراء ذات الثوب الاخضر ؟. ألم تتعرفي عليها ؟ لا بد ان نسأل . . انها متغطرسة أليس كذلك ؟ لقد حزرنا هذا من نظرة . . تقولين بان ليلى اوصتك بان ترفعي شعرك دائماً كما فعلت اليوم ؟ أرأيت ؟ هذه نصيحتنا .. نحن أدرى منك بذوق (بنت عمك) .. فاحتفظي بهذه النصيحة ..

شفيقة في قلق حتى تعرف الشقراء المتغطرسة ذات الثوب الأخضر من تكون.. وعرفتها وعرفت ان لها اما تتردد كثيراً على بيت (الدكتور) .. ويزعجها الأمر فأي حق لهذه ان تصحب ابنتها بين يوم ويوم .. انها أدرى بنية هؤلاء النسوة اللواتي لا همّ لهن إلا اصطياد الأزواج لبناتهن . . ولكن هذا تطاول يجب ألا يسمح لها به .. (فهمي) ميال الى سعاد بلا شك .. وكل الظواهر تقطع بهذا .. يبسم لها من الشرفة ، ويحاكيها في الدرب ، واعطاها مرة كتابا . . واخته تحبها وتؤثرها فتدعوها الى حفلات الأسرة .. ولقد شهدت الخادم بان ليلى كثيراً ما تطري سعاد لأمها ..

فنية الجماعة واضحة كالنهار .. فما معنى ان تعترضه هذه المرأة وبناتها ؟ لا . ستصبر شفيقة عليها مدة فان لم (تقطع رجلها) فلا بد من ان تذهب اليها في دارها تنهاها عن هذا الشطط وتبصّرها بموقف فهمي من سعاد ..

أية نسوة هؤلاء !.

ويظل القلق يأكل قلب العمتين .. سيما شفيقة .. ان الفتى لم يتقدم فمتى يفعل يا ترى .. لا بد انه فاعل قريباً .. لعله الآن مشغول بالتفكير في مستقبله .. إذ كيف يخطب بنات الناس قبل ان يركن الى شيء ؟.

لا بد من حركة .. واشد ما تخشيان مناورة تقوم بها أم « الفتاة الاخرى » فتلفّ الصبي ولا تبقى لسعاد إلا الحسرة ، وهكذا تظل شفيقه، وتظل انيسة، وتظل سعاد في هواجسهنّ. العمتان تفرشان بالآمال درباً للصهر العزيز ، والفتاة حيادية الشعور فما بينها وبين الفتى لا يدفعها لان تطمح مطمح عمتيها ، تنام على الدلال مستكينة ترقب ختام الرواية ..

وجاءت النهاية يوماً ..

استيقظت العمتان مرة على صوت الجيران يودعون فتاهم المسافر الى امريكا للدراسة ..

واستيقظت سعاد بعد ليلة حلمت فيها بفهمي – فهي في احلامها أجرأ منها في يقظتها على بناء القصور .. استيقظت على صوت شفيقه القديم يصيح :

– ألم تستيقظ بنت الباشا ؟ تراها ستظل نائمة الى الظهيرة ؟ ومن يكنس الشرفة ويسقي اصص الزرع ..؟ انا ؟

سميره عزام

ليا سول – قبرص